قصص القرآن

سيل العرم

قلم: أحمد بهجت   ريشة: مصطفى حسين



دار الشروق

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ-١٩٨٨م
الطبعة الثانية
١٤٠٩هـ-١٩٨٩م
الطبعة الثالثة
١٤١٤هـ-١٩٩٣م
الطبعة الرابعة
١٤٢٢هـ-٢٠٠١م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

قصص القرآن

أصحاب الأخدود

قلم: أحمد بهجت
ريشة: مصطفى حسين

دار الشروق

انطلق الفـارسُ مثـل سهمٍ من البرقِ .

راحَ يلهبُ ظهـرَ حِصـانِـه بـالسَّـوطِ ليَستحثّه على الجَريِ ، وكان الحصانُ يَجري بأَقصى طاقَتِه ، وآنحـدَر العرقُ على جسدِ الحِصانِ فَبلَّله ، ورغم ذلك فقد ظلّ يَجري في طريقـهِ بين الجِبالِ والسُّهولِ ، مُستجيباً لأمرِ صاحِبِه . .

كـان واضِحـاً أن الفـارسَ الـذي يَضـربُ حِصانَـه يَحمِلُ سِراً خَطيـراً لا يَحتمِلُ التأَجيلَ . .

بعد رِحلةٍ شاقَّـةٍ وصلَ الفـارسُ إلى أَسـوارِ المـدينـةِ . . وكـانت الشمسُ تَنحـدِرُ نحو الغُـروبِ ، وآنتشَـر اللونُ الورديُّ الأحمرُ في السحـابِ وآنعكسَ على وجوهِ السّائرينَ في الطُّرُقاتِ .

ولم يُقلِّلِ الفـارسُ من سُرعتـهِ حين وصـلَ إلى طُرقـاتِ المـدينـةِ ، وأَفـزعَ النـاسَ في السـوقِ بسببِ آنـدِفـاعِـه ، وأَوقـعَ الحِصـانُ في طـريقـهِ بعضَ أقفـاصِ الفاكهـةِ لبائـعٍ في السُّـوقِ ، وصَرخَ البائـعُ حَزينـاً على فاكِهتِـه التي تَحطَّمتْ تحت أَقدامِ الحِصانِ . .

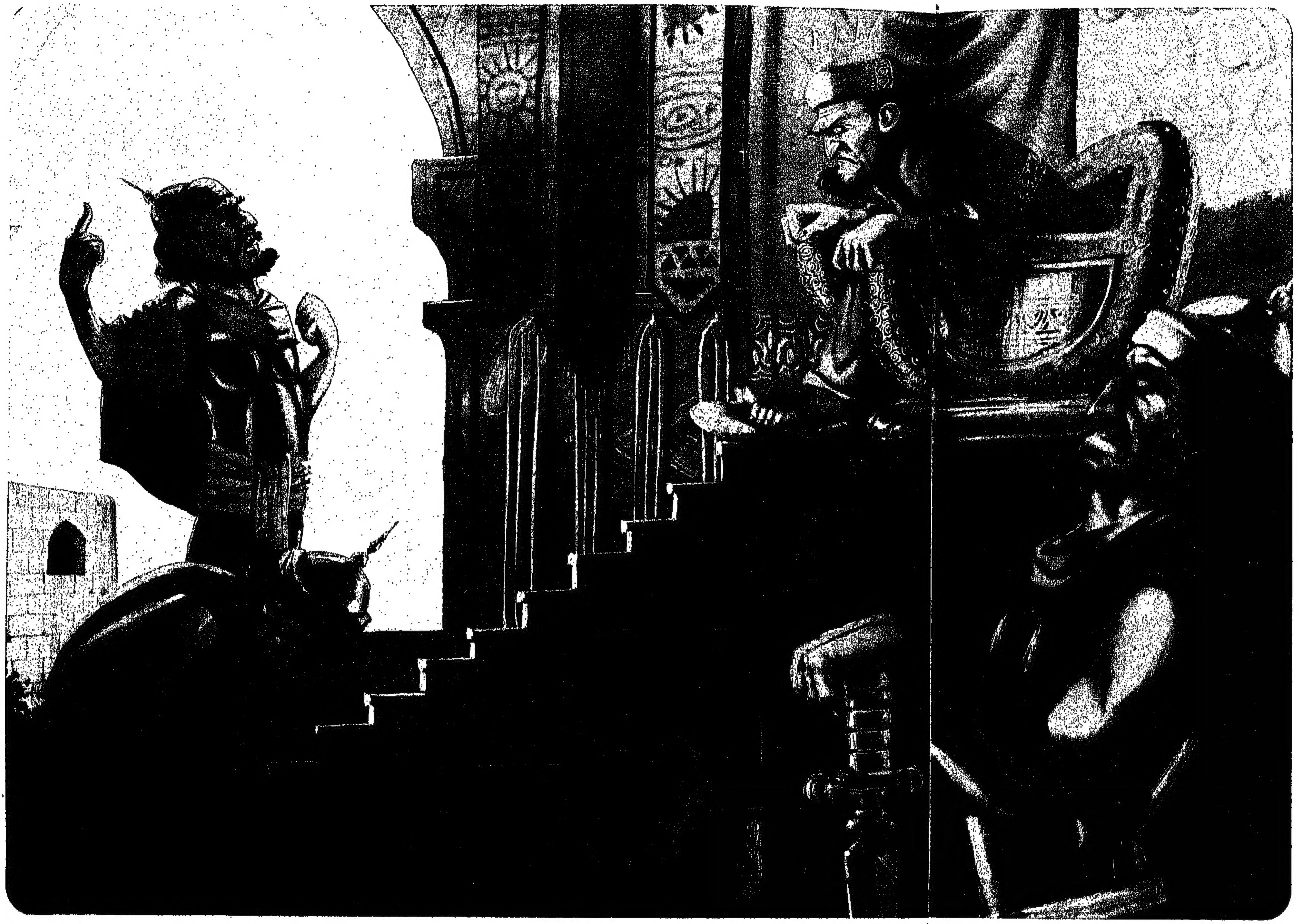
ورغمَ ذلك فقد مَضى الفـارسُ يَشُقُّ طـريقَه بنفسِ سُـرعتِه حتى وصـلَ إلى قصرِ الملكِ .

آستوقَفَه الحـرسُ على بابِ القصـرِ فأخرجَ لهم خِطاباً من جيبِهِ وقال بِلهجةٍ آمِرَةٍ :

ــ معي خِطابٌ للمَلكِ . .

أَذِنـوا لـه في الـدُّخـولِ ، فـدخـلَ الحـديقةَ وتـرجَّلَ عن حِصـانِه وآنـدفعَ مُسرِعاً حتى وصلَ إلى قاعةِ الانتِظارِ في قَصرِ الملكِ .





قابَلَه مُديرُ القَصرِ وسأَلَه ماذا يُريدُ .

قالَ الفارسُ : أُريدُ رُؤيَةَ الملكِ على الفورِ .

قالَ مُديرُ القصرِ : لكنّك تَبدو مُرهَقاً من رِحلتِكَ ، ولعَلَّكَ لم تأْكُل منذ الصباحِ ، كما أن المَلكَ في آجتماعٍ هامٍ ولا أَستطيعُ إزعاجَه الآن ـ لماذا لاَ تَنتظِر ؟

قال الفارسُ مُكشِّراً وقد بدا عليه الغضبُ : ليس مُهمّاً أن أستريحَ أو آكُلَ ، إن الرِّسالةَ التي أحمِلُها لا تَستطيعُ الانتظارَ . يجبُ أَن أَرى الملكَ على الفورِ . . قُلْ للمَلكِ إن رَسولاً من نجرانَ يحملُ أخباراً هامةً ويُريدُ أن يراكَ .

ذهب مُديرُ القصرِ إلى الملكِ وعادَ بعد ثوانٍ قليلةٍ إلى الفارسِ وهو يقولُ له : يَنتظِرُكَ الملكُ في قاعةِ العرشِ الآن . . تَفضّل معي . .

سارَ مديرُ القصرِ وسار الفارسُ معه حتى وصلا إلى قاعةِ العرشِ فتأَخَّر مديرُ القصرِ ودخلَ الفارسُ .

آنحنَى الفارسُ للملِكِ وأَخرجَ من جَيبِهِ رِسالةً قدَّمَها إليه وهو صامتٌ . .

فتحَ الملكُ الرِّسالةَ وقرأَها فَتغيرَ وَجهُه . . ظهرتْ عليهِ عَلاماتُ الغضبِ ، مزَّقَ الرسالةَ وأَلقاها على الأرضِ . . نهضَ من كُرسيِّ العرشِ وآتجهَ نَحو الفارسِ وقال له : هذه أخبارٌ سيئةٌ . . حدِّثْني عنها بالتَّفصيلِ .

قال الفارسُ : دخلَ الدينُ الجديدُ

إلى نجرانَ .

قـال الملكُ : كيفَ يَـدخُـل الـدينُ الجـديـدُ بغيـر إذنٍ مني ؟ هـذا غـزوٌ لِنَجـرانَ . . أكملْ حَـديثَـكَ ، من هـو صاحبُ هذا الدّينِ الجديدِ ؟

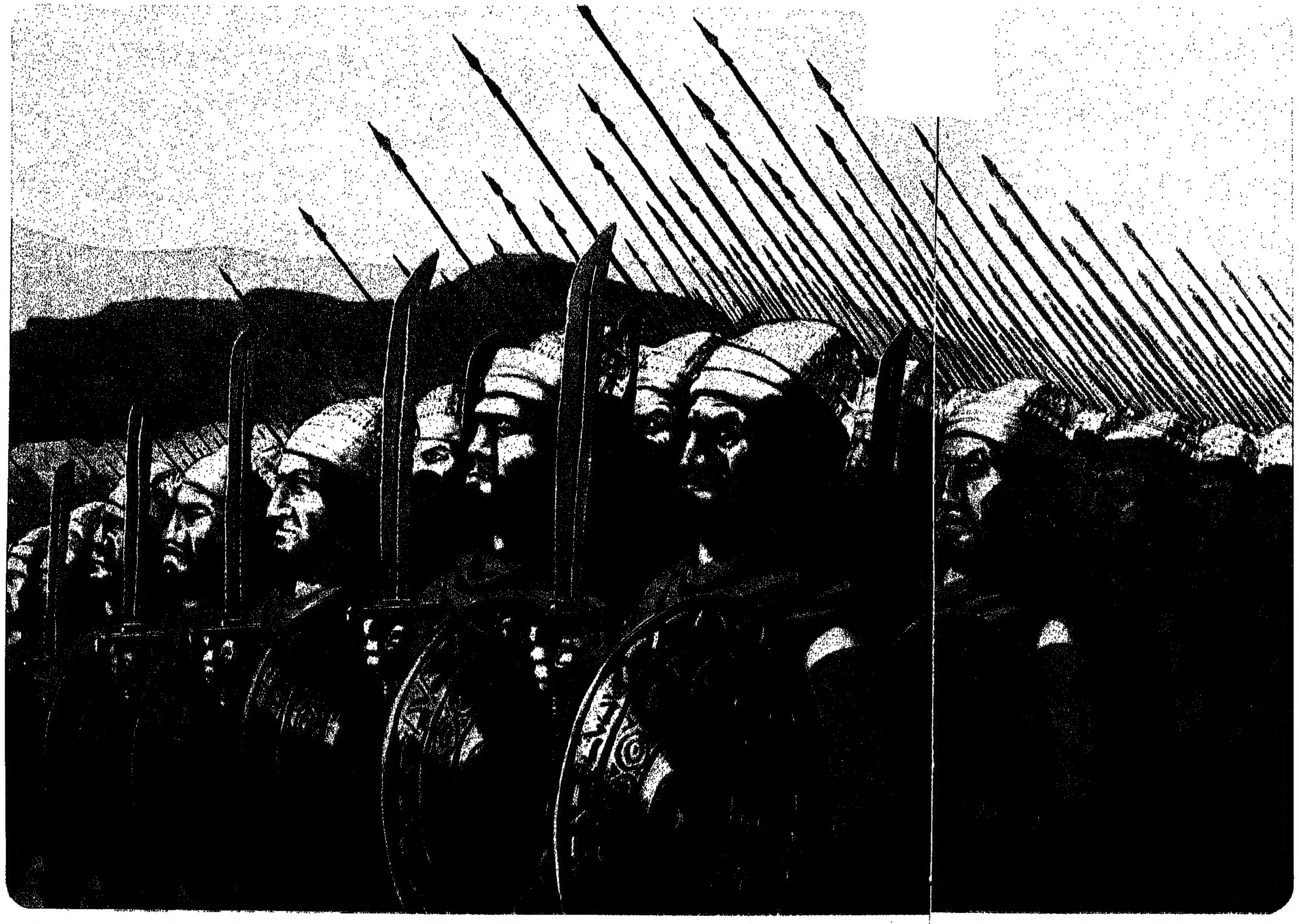
قـال الفارسُ : يقـولونَ إن صـاحبَه نبيٌّ يُسمونَه عيسَى المَسيح . .

سأله الملكُ . . ما الذي يَدعو إليـه الدينُ الجديدُ ؟

قـال الـفـارسُ : يَـدعـو إلـى الإيمانِ بالله وتَوحيدِه .

قـال الملكُ : من الـذي دخـلَ في الدينِ الجَديدِ ؟

أَجابَ الفارسُ : دخلَ الوَثنيُّـونَ في الدينِ الجديدِ وآمنوا بـالله ، ودخلَ فيـه بعضُ اليهودِ وآمنوا بـالله ، وهناكَ فِتنةٌ بين اليهودِ .



سـألَ الملكُ أَخيراً ، وهــو يَحني رأْسَه ويُفكِّر : حـدِّثني كيف دخلَ هـذا الدينُ الجديـدُ إلى نَجرانَ . . حـدِّثني عن المسؤولِ عن تَسلُّلِه .

قال الفارسُ : تسلّلَ هذا الدينُ عن طريقِ غُلامٍ مُؤمنٍ وجدَه سادتُه الوثنيُّون لا يُصلّي للنَّخلةِ التي يَعبُدونَها . .

سأَلوهُ : لمن تُصلِّي إذن ؟

قال الصبيُّ المُؤمنُ : أُصلي لله . . خالق النخلِ وخالق كُلِّ شيءٍ .

قـال الـوثنيـونَ (الـذينَ يَعبُـدونَ غيـرَ الله) : لكنَّ هـذه النخلةَ تَنفعُنـا وتَمنعُ عنا السوءَ .

ضحـكَ الصبيُّ سـاخِـراً وقـال : لا تُصدِّقوا ذلك . . النخلةُ لا تَستطيـعُ أن تنفـعَ أَو تضرَّ بـل إنها لا تستـطِيـعُ دفـعَ

السوءِ عن نَفسِها . . لو صلَّيتَ لله لكيْ تَحتـرقَ النخلةُ فٱحتـرقتْ . . هـل تَتَّبِعونَ دينَ المسيحِ وتُؤمنونَ بالله ؟

قالوا : نعم . .

وجـاءَ الليـلُ على الـصبيِّ وهـو يُصلِّي . . كـان يُصلِّي ويَـدعـو . . وتَجمَّعتْ في السمـاءِ سُحبٌ كثيفـةٌ وٱشتدَّتْ حركةُ الرِّياحِ . وٱكفهرَّ الجوُّ وتغيَّرَ . . وبَرقَ البَرقُ وٱرتجَّتِ الأرضُ بصـوتِ الرّعـدِ . . وهَوتْ صـاعِقةٌ من السماءِ على النَّخلةِ فٱحترقَتْ ، وشاهدَ الناسُ جَميعاً مَعبودَهُم وهو يَحتـرقُ ولا يَستـطيـعُ أن يـدفـعَ عن نفسِـه النـارَ أو يُطفِيءَ الحريقَ .

ودَخلوا في الإيمانِ بالله . .



ٱستمَـعَ الملكُ صامِتاً عـابِساً لِمَا يَقـولُـه الفـارسُ . . ٱنتهَى من كـلامِـه فَصـرفَهُ . . لَم يكـدِ الفـارسُ يَنصـرِفُ حتى أمـرَ الملكُ أن يَجتمِـعَ مجلسُ الوُزراءِ وقادةُ الجيشِ . .

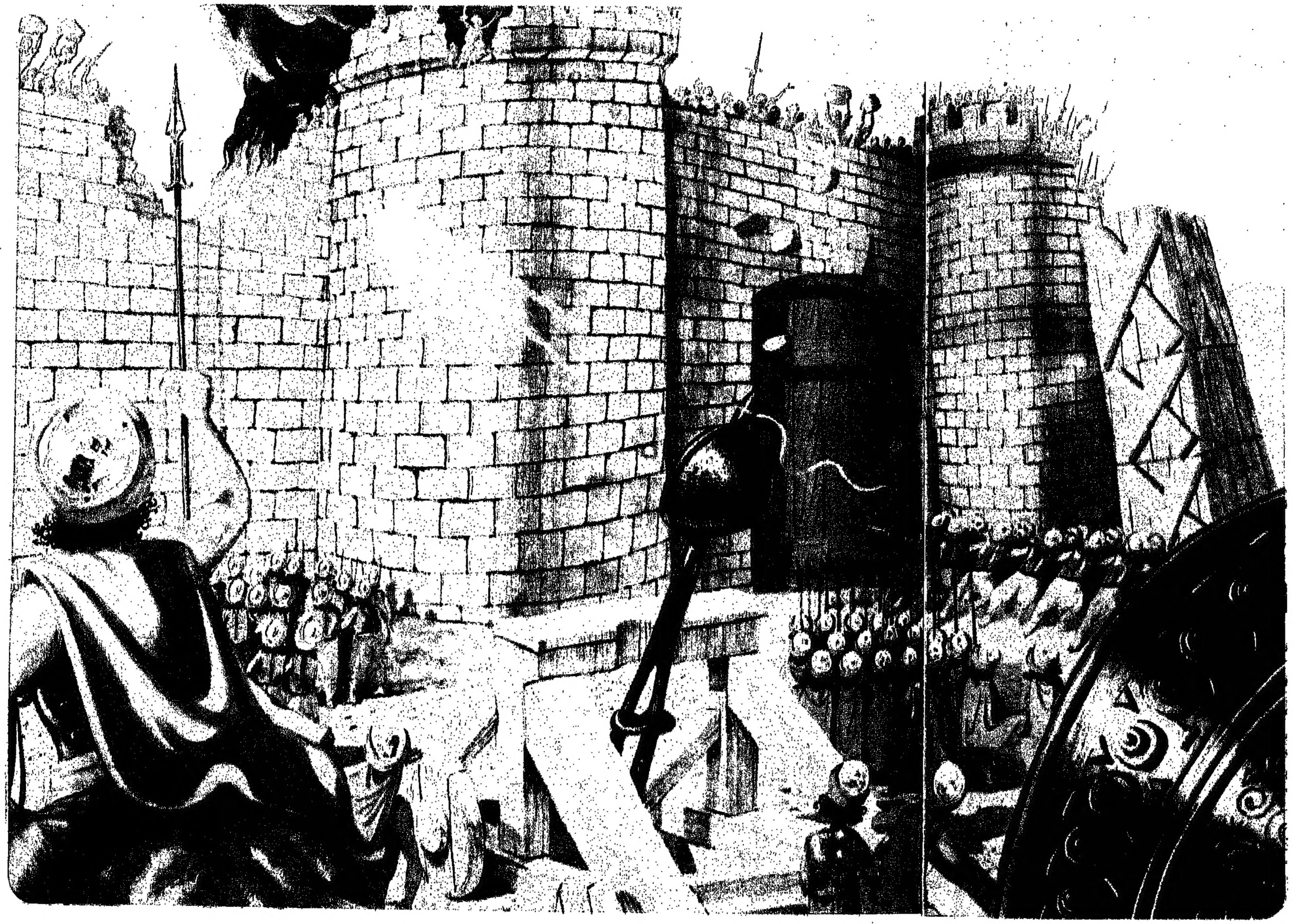
ٱجتمـعَ الجميـعُ وجَلسـوا صـامِتينَ وتحدَّثَ الملكُ .

قـال : أُريـدُ أَن يستعِـدَّ الجيشُ لِلحـربِ . . سنُهاجِمُ نَجـرانَ . . لقـد آمنَ الناسُ فيها بدينٍ غير ديننا . . آمنوا بـإلهٍ واحـدٍ بشَّر بـه نبيٌّ جـديـدٌ ٱسمُـه المسيـحُ . . يجب أَن نُؤدِّب الـذيـن هَجروا دِينَنا . .

وسوفَ يكونُ تأديبُهم حاسِماً . .

ٱنفضَّ الاجتِمـاعُ وٱنصـرفَ كـل واحـدٍ إلى عملِه . . ودخـلَ الملـكُ غُرفتَه وراحَ يشربُ الخمرَ . .

كان الملكُ يَهودِياً قَسا قلبُه وخَلا من الإيمانِ والرحْمـةِ ، كان يَهـودِياً ٱبتعـدَ



عن تعـاليمِ مـوسَى إلى شيءٍ يُشبِـه الوَثنيةَ . . ولو أنه كان يَهودياً يُؤمِنُ بالله لَمـا كـرِهَ أن يكـونَ هنـاكَ مَسيحيُّـونَ يُؤمنونَ بالله . .

بعد أيامٍ تحرّكَ الجيشُ . .

كـانت خُـطَّةُ الملكِ أن يُحـاصِـرَ المـدينـةَ حتى يَستسلِمَ أَهلُهـا ، ثم يَضعُهُم أمامَ أمرٍ من آثنينِ .

إمـا أن يَعودوا إلى دِيـانتِـه بكـلِّ مـا تَنطوي عليـه من شَـوائبَ وَثنيةٍ . . أو يَقتُلُهم بنارِ الحريقِ . .

كـان قـرارُه الـظالمُ يعني تَخييـرَ المُؤمنينَ بين الإيمانِ والموتِ حَـرقاً أو الكُفـرِ والنجّاةِ . . وكـان معنَى تَخييرِه أنه يُخيِّرُ المُؤمنينَ بين الموتِ حَرقـاً في الدُّنيا ، والنَّجاةِ من حريقِ الآخـرةِ ، أو النَّجـاةِ في الـدُّنيـا والهـلاكِ في حـريقِ الآخرةِ . .

وكـان الملكُ يـظنُّ أنـه سَيُخيفُ المؤمنينَ بِتهديدِه وجَيشِهِ . .

وصلَ الملكُ إلى نجرانَ وحاصَرهـا بجيشـهِ الهـائـلِ ، وقـاتـلَ أَهلَهـا بشجـاعةٍ ، ولكنَّهم كـانوا عَـدداً قَليلاً يفتقـرُ إلى الـمُعـداتِ والسِّـلاحِ ، وآنهـزمـوا ، فـدخـلَ الملكُ المـدينـةَ وأَحضَـر المُؤمنينَ وأَوقفَهُم أَمـامَـه وهم مُكبَّلونَ في السَّـلاسِل والقُيـودِ وقال : عُودوا إلى دِيننا وإلا قَتلتُكُم جَميعـاً . . وتكلَّمَ الغُلامُ المؤمنُ . .

قال : نحن نَدعوكَ إلى الإيمانِ بالله أيها الملكُ .

قال الملكُ : سأَحـرِقُكُم بالنـارِ بعد صلبِكُم إذا لم تَعـودوا إلى دِيـانـتِكُم السابِقةِ . . أنتم مُتَّهـمونَ بالخِيانةِ العُـظمَى . . إن آختيـارَ دينٍ آخـرَ

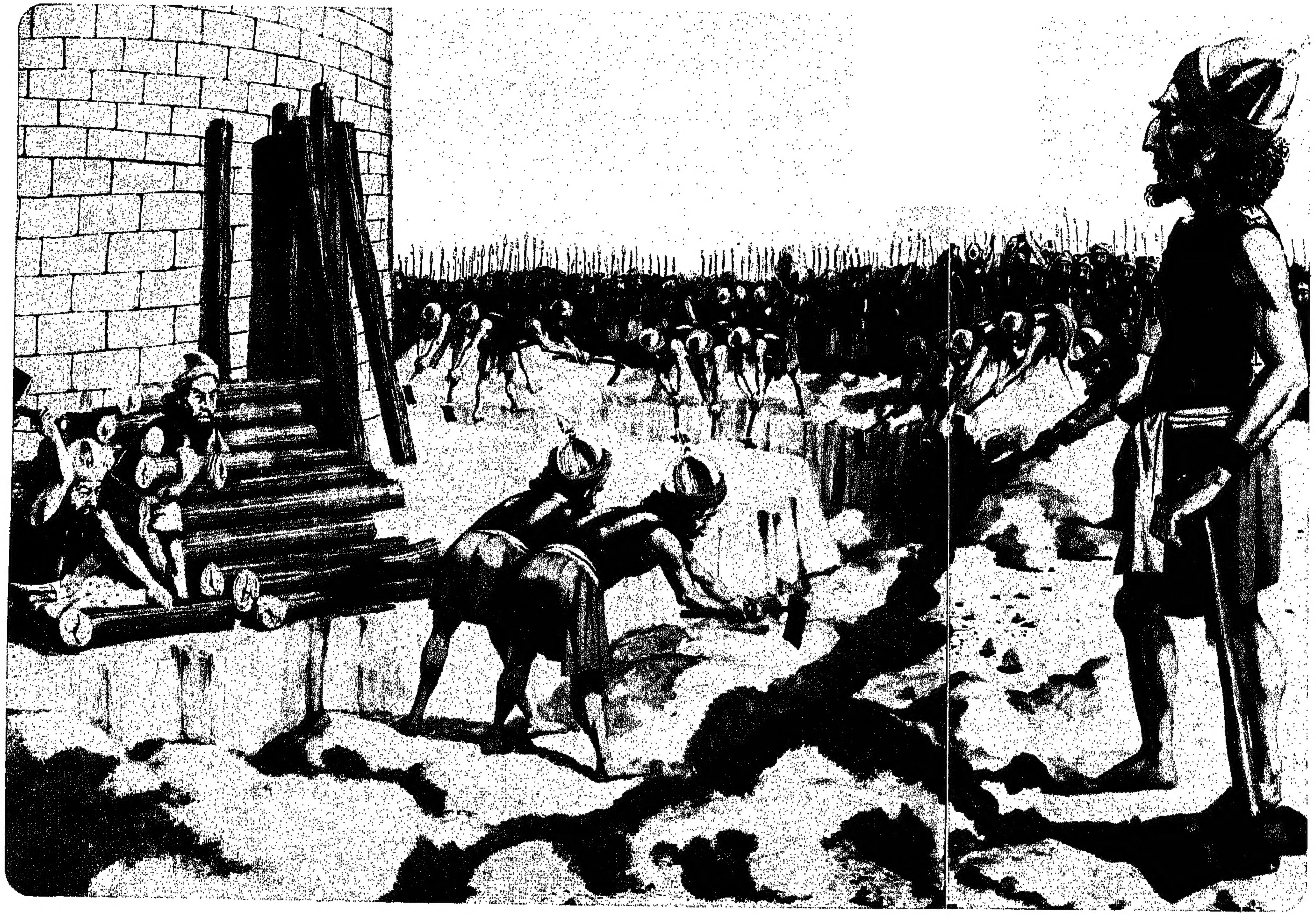
غيـر ديننـا يـعنـي الخِيانةُ . . وهي خِيانةٌ سوفَ تَدفعونَ ثَمنها عَذاباً هائِلاً .

قال الغُلامُ المؤمنُ : لن نَخرجَ من الإيمانِ بالله مهما تَعذِّبنا .

أمـر الملكُ جُنـودَه بحفـرِ أُخـدودٍ هـائـلٍ فـي الأرضِ . . تـمَّ حـفـرُ الأُخـدودِ . . فـأمـرَ الملكُ أن يَمـلأوا الأُخـدودَ بـالـحـطـبِ الـجـافّ . . مَلأوهُ . . أَمر الملكُ أنْ يُبلِّلُوا الحـطـبَ بالزيتِ فَفعلوا . . أَمر بعد ذلـك بتقييدِ المُؤمنينَ وراحَ يَضـعُـهـم في الأُخـدودِ واحـداً بعـد الآخـر . . حتى آمتـلأَ الأُخدودُ بالمؤمنينَ . .

قال الملكُ الوثنيُّ لِلمؤمنينَ :

أَمـامَكُم فُـرصـةٌ أخيرةٌ لِلعـودةِ في دِيننا . . إذا رَفضتُم أَمرتُ بإشعالِ النارِ في الحطبِ . . ماذا تَقولون ؟



لم يقُل المُؤمنونَ شَيئاً . . كان حفرُ الأُخـدودِ بمثابَـةِ طَعنـةِ خـوفٍ نـافـذةٍ مُوجَّهةٍ نحو القلبِ . .

وطِـوالَ الفترةِ التي آستغـرقَها حفرُ الأُخـدودِ كانت الشَّـائعـاتُ تَـتـطايـرُ ، وكان مُجرّدُ آشتغالِ الجُنودِ في الحفـرِ عَمـلاً مُـرهِبـاً بحَقّ . كـانت النـاسُ لا تسأَلُ أَبداً .

ــ لماذا يَحفِرُ الجنودُ هذا الأُخـدودَ العظيمَ ؟

كان السؤالُ مُمتنِعاً وكـانت الإجابـةُ مَعروفةً . .

هنا سوف يُحرَقُ المُؤمنونَ أَحياءً .

ما هو ذَنبُهم لِيُحرَقوا أَحيـاءً ؟ ما هي الجَريمةُ التي آرتكَبـوها لِيقَـع لهم هذا العِقابُ الأَليم ؟

إنهم يُؤمنونَ بالله . . هـذا هـو كـلُّ ذَنبِهم . . وهذه هي كلُّ جَريمتِهِم . .

كان هذا كلُّه مَعروفاً . . وكـان حَفرُ الأُخدودِ هـو الـرمزَ النِّهـائيَّ لِلظلمِ والطُّغيانِ . .

كانت كلُّ فـأسٍ تَرتفـعُ لِتهوي على الأرضِ تَـرفـعُ معهـا هـذه الفِكـرةَ الظَّالمةَ .

فكـرةُ طُغيـانِ الـطُّغـاةِ عـلى المُؤمنينَ . .

سكتَ المُؤمِنونَ ولم يَقولوا شَيئاً . .

رنَّ في أذهـانِهِم تَهـديـدُ الـملكِ الوثنيِّ الظَّالمِ ، كان يُهدِّدُهم بالحَريقِ إذا لم يَعـودوا في مِلَّتِـه الكـافِـرة . . وآختـارَ المُؤمنونَ الحـريقَ . . آختاروا الشَّهادةَ في سبيلِ الله . .

وفهِم الملكُ آختيارَهُم فأَمرَ بإشعالِ النارِ في الأُخدودِ . .



أَصبـحَ الـمُـؤمـنـونَ الآن وسطَ الأُخـدودِ ، وقـد قُيِّـدوا في الحبـالِ وَسلاسل الحديدِ . .

وآشـتعـلت النـارُ وسطَ الأُخـدودِ وراحتْ تَتنقَّـلُ إلى أَطـرافِـه حتى آشتعلتْ فيه كلّه . .

وَوقفتِ القُوةُ الكافرةُ تَشهدُ عـذابَ المُؤمنينَ . . حين بـدأَت النارُ تَشتعـلُ في المؤمنينَ وقـعت أُمـورٌ كـثيـرةٌ ، تصايحَ الكـافِـرونَ وهلَّلوا ، وسـادَ المُؤمنينَ سـلامٌ قلبيٌّ عجيبٌ . . أكلتِ النـارُ مَلابِسَهُم وأَكلتْ جُلودَهُم ومضتْ تَحـرِقُ أَجسـادَهُم ، ولكنّهم آحتمَلوا العَـذابَ في صمتٍ ورضا . . وتَحـوَّلَ كـلُّ مؤمنٍ مـن المُـؤمنـينَ إلـى شُعـلةٍ مُحترِقةٍ تُضيءُ وسطَ ظلامِ الحياةِ . .

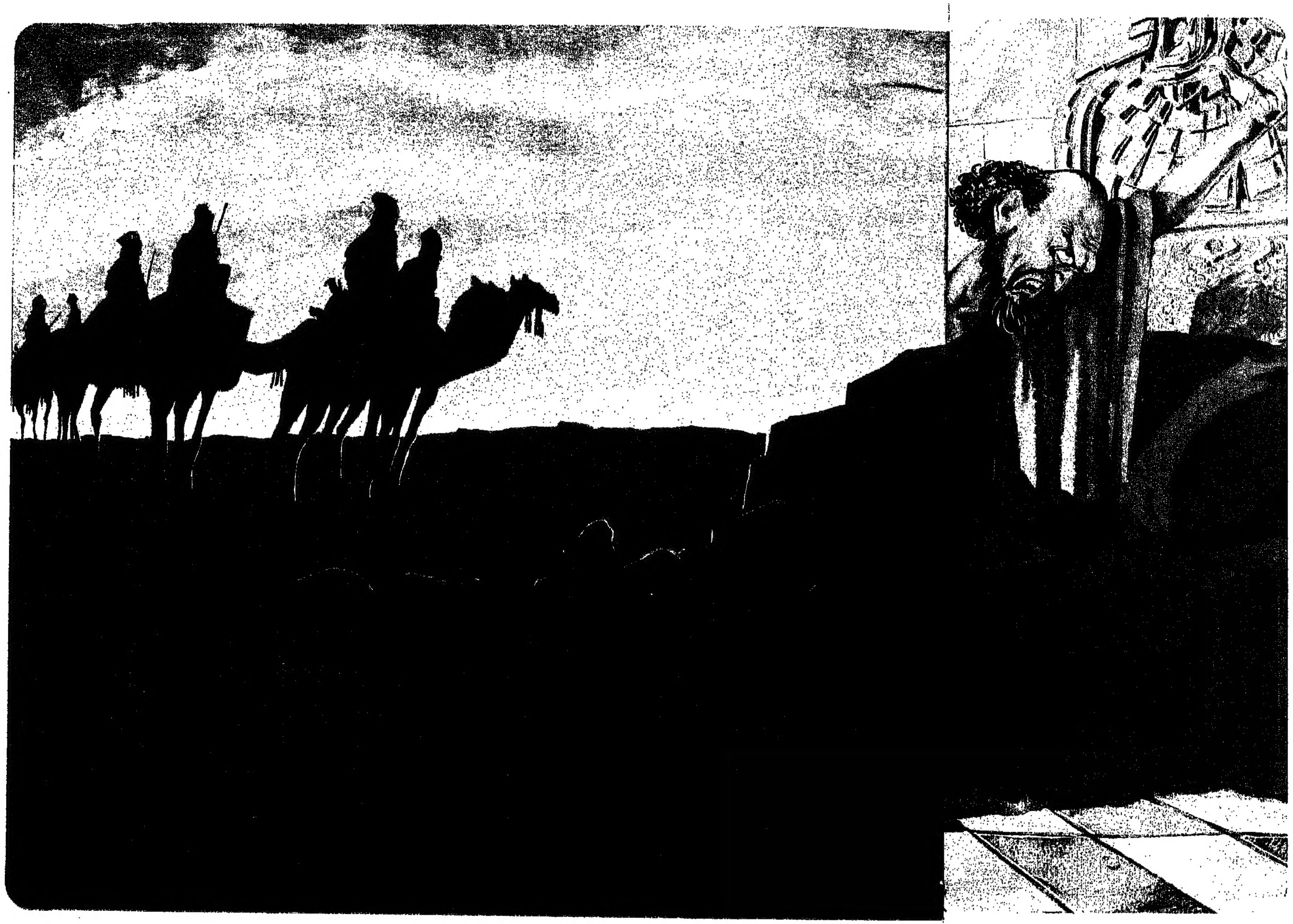
آنصرفَ الملكُ من أَمام الأُخدودِ بعد أن تأكَّد أن المُؤمنينَ قد آحترَقُوا . .

كان صَدرُه يَغلي بالحِقدِ عليهم . . ولم يكنْ يَنقُم منهم إلا إيمانهم بالله العزيزِ الحميدِ . . كان الملكُ سَعيداً لأنه دمَّرهُم ، وآعتبرَ أنه آنتصرَ لِكبريائِه وآلِهتِه وأَرضاها . .

ومرت أيامٌ قليلةٌ ، وسقطَ الملكُ مَريضاً لغير سببٍ واضحٍ . . زارهُ الأطباءُ من جميعِ أنحاءِ المملكةِ لِعلاجِهِ ، وفَشلوا في عِلاجِه ، وآستدعَى أطباءُ المَمالِك المُجاورةِ ، فلم يَعرِفوا سرَّ مرضِه ، وفَشلُوا في عِلاجِه ، وقُدِّمتِ القرابينُ للآلِهةِ الوثنيةِ ، وراحَ الكهنةُ يَسألونَ هذه الأوثانَ شِفاءَ الملكِ ، كان الملكُ يَتعذَّبُ عَذاباً هائِلاً . . لم يكن يَستطيعُ أن ينامَ من فرطِ الآلامِ التي يَحسُّها في جسدِه كلِّهِ . .

كان يَصرخُ في قصرِه فَيفزعُ الأطفالُ النائمونَ في مَدينتهِ من هولِ صَرختِهِ . . كان يرى مَشهداً واحداً أمامَ عينيهِ : آبتسامات المؤمنينَ وهم يَحترقونَ في الأُخدودِ . .

وكانتْ هذه الابتساماتُ تملأُ جَسدَهُ كلَّهُ بوجعِ الحريقِ وآلامِهِ ، ومضتْ حالةُ الملكِ تَسوءُ ، وكان الوجعُ يَدفعُه



المدينةِ يقولُ :

ـ هنا . . في هذه الصَّحراءِ . . عاشتْ مدينةُ مأْرب . . كان لأهلِها جنَّتانِ عن اليمين وعن الشِّمالِ . .

ثم يبدأُ في روايةِ ما حدثَ . .

وهكذا تحوَّل القومُ إلى أَحاديثَ تَرويها القَوافلُ ، ولم يعُد باقياً منهم غيرَ سيرتِهم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ
رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن
سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا ۝
فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ
أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ
فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

صدق الله العظيم